قسطاكي الحمصي

أسلوبه في الكتابة النثرية

للأستاذ أسعد الكوراني

ليس الكلام في أدب الأستاذ قسطاكي بك الحمصي بالأمر السهل ولا هو بالمطلب اليسير ، فالخطباء كثيرون والوقت محدود وأدب المحتفى به، أطال الله بقاءه، متشعب النواحي فليس في طوق خطيب أن يلم به في دقائق معدودة . لذلك سأقصر كلمتي على أسلوب الأستاذ في الكتابة النثرية .

يقولون إن أسلوب الرجل صورة عن نفسه . وليس أصدق من هذا القول في التعبير عن الأدب الصحيح . فالأدب مظهر لما تختلج به النفس وتشعر به وتدركه عن طريق العاطفة والعقل . والأديب يؤدي رسالته وقد أذاب مارآه وأحس به في بوتقة نفسه، فلا بد من أن يجيء أسلوبه قطعة من ذاته .

كل من قرأ للأستاذ قسطاكي بك الحمصي ماخطه يراعه منذ ستين عاما إلى هذا اليوم يرى في كتابته النثرية قوة في اللغة وصحة بالغة في التركيب والتعبير . وهذه صفات تكفي وحدها لتخليد صاحبها ، وقلّ أن اجتمعت في فجر نهضتنا الأدبية الحديثة إلا لأفراد معدودين. ولكنه يجد إلى جانب هذه الصفات صفة أخرى ينفرد بها الأستاذ بين أقرانه ، ويندر من يشايعه فيها من أترابه وأنداده ، وهي التأنق في الأسلوب. فكأني بالأستاذ لا يرضى من قلمه أن يأتيه بالناصع المشرق من صحيح الكلام وبليغه، بل يريد إلى جانب ذلك أن يكون بيانه عنوانا للروعة والجمال . فهو كالنحات الماهر يستخرج من الصخر الجامد ما يهز الشعور بحسنه وجماله .

ولقد قرأت ما كتبه الأستاذ في شبابه وكهولته وشيخوخته فما شذ أسلوبه عن هذه الصفة في أي دور من أدوار حياته .

نعم قد يختلف أسلوبه قوة وجمالا في بعض ما كتب عن بعض؛ ولكن طبيعة التأنق كانت بادية على كل آثاره.

ولقد تشرفت يوما بزيارته ومعي صديقي الأديب جورج اسطنبولية فسمعت من حديثه العذب الفياض، ورأيت من مليسه وهندامه، وشاهدت في حجرته وعلى منضدته من الأثاث والكتب ما زادني يقيناً بأن أسلوب الأستاذ كبيانه صورة صادقة لسلامة الذوق وروائع الفن .

ولعلي لا أطيل عليكم إذا تلوت على مسامعكم قطعة من بيانه لم أخترها اختياراً بل اطلعت عليها اتفاقا عند ما فتحت كتابه الذي وضعه عن (أدباء حلب ذوي الأثر في القرن التاسع عشر) وهي من محاضرة له في وصف قصور الخليفة المأمون وهذه هي :

« وكان يشرف عليها الراكب في دجلة من بعد شاسع ، ولا سيما قبابها ، فمن مجصص بالجص الأبيض الناصع كالفضة البارقة ، ومن مطلي نصفه السفلي بالأخضر الناضر والنصف العلوي بالذهب النضار ، وفوقها جامات الذهب تتلامع كالشهب المتقدة ، ثم تبدو للعيون تلك الحدائق الممتدة إلى أقصى مدى البصر ، تنسرب فيها جداول الماء من برك عظيمة الاتساع مختلفة الأوضاع ، ينصب فيها الماء كالفضة الذائبة من أفواه حيتان أو سباع أو ثيران أو نسور ، من مرمر مختلف الألوان بالغ من الصناعة نهاية الاتقان بين جنات قد ازدحمت غياضها واشتبكت أشجارها وتعانقت أغصانها وامتد ظلالها ، يسير فيها الداخل تحت أقبية وأطواق من فسيفساء الأوراق ، في بساط كأنما أرضها خمائل سندسية ، وعلى جانبيها دوارزينات لا يدرك الطرف منتهاها ، قد اعترش عليها الياسمين، وتعلق بها الورد والنسرين »

فهذه قطعة كتبها الأستاذ منذ عهد بعيد ، وهي مشرقة الديباجة ناصعة البيان صحيحة اللغة سليمة التركيب لا تقع كثيرا على أشباهها في متخير كلام العرب في الوصف الجميل .

غير أن هذه القطعة لا تمتاز بالكلام البليغ والأسلوب الصحيح فحسب، بل تمتاز أيضا بما فيها من التأنق والعمل الفني الخالص .

فما هي العوامل التي اجتمعت فأشرق منها هذا الأسلوب الوضاح؟

عندي لهذه العوامل أصلان : الموهبة والمحيط .

فالموهبة هي القدرة الطبيعية التي تتجلى في ذوي الكفايات الممتازة .

والمحيط هو الوسط الذي يعيش فيه الانسان فيتأثر به .

« نص الخطاب الذي ألقاه الأستاذ المحامي في الحفلة التي أقيمت بحلب في سبتمبر تكريما للاستاذ قسطاكي بك الحمصي »

والموهبة لا تثمر ثمرها إذا لم تتعهدها يد التهذيب بالاصلاح. وهي تتكيف بالمحيط ومؤثراته.

ولا خلاف في أن العلامة الحصي من ذوي المواهب الممتازة النادرة؛ فما هو الوسط الذي عاش فيه فأخذ عنه وانطبع بطابعه فصدر عنه هذا الأسلوب المشرق؟

ينتسب الأستاذ إلى أسرتين عريقتين في الوجاهة والحسب والنسب، فأبوه من آل الحصي وأمه من آل الدلال. والأسرتان مشهورتان بالحياة الرفيعة والعيش الرغيد الوارف. وأسرة الدلال معروفة بالأدب، وقد ظهر منها نوابغ لا تزال آثارهم الأدبية ناطقة بفضلهم ومكانتهم. ولقد كان لأم الأستاذ وقوف على الأدب وخاصة على الشعر. فنشأ في هذا المحيط العالي تتعهده أمه — بعد أن فقد أباه وهو في الخامسة من عمره — بخير أنواع التربية والتهذيب.

ومن صفات الأسر العريقة في الوجاهة المحافظة على التقاليد والعادات. فمن الطبيعي إذن أن تبدو مظاهر هذه الحياة العالية بنعيمها وأخلاقها وتقاليدها على أدب الأستاذ؛ وهذا في اعتقادي هو السبب المهم في اتسام أسلوبه بسمة التأنق وروعة البيان.

على أنه يجب ألا تفوتنا ونحن نتكلم عن نثر الأستاذ ظاهرة لها قيمتها في تقدير مكانته الأدبية. وهي أننا لو أخذنا أية قطعة من نثره كتبها قبل أربعين أو خمسين عاماً، ولا سيما ما كان منها دائراً حول الموضوعات الاجتماعية والتاريخية، ثم قارناها بما يكتب اليوم بعد أن أثمرت النهضة الأدبية الحديثة ثمارها لما رأينا بينهما كبير فرق. فكأننا نقرأ بلغة اليوم ما كتبه الأستاذ قبل نصف قرن يوم، كانت أساليب الكتابة ترسف في قيود الركاكة والتقليد والصناعة اللفظية

واسمحوا لي — وإن أطلت الكلام قليلا — أن أتلو على مسامعكم أسطراً من مقال نشره الأستاذ بعنوان (أدب التقادير وأرباب السعي والتدبير) في الجزء الثالث عشر من مجلة البيان الصادر في أول إيلول سنة ١٨٩٧ أي قبل إحدى وأربعين سنة وهذه هي:

« قد ألف بعض الناس الاتكال على التقادير أي على ما تولده الليالي من الحوادث التي لم تكن في الحسبان. وخالفهم في ذلك أقوام زعموا أن ذلك مدرجة إلى الكسل، وأنه مما يقف في سبيل التقدم وبلوغ الكمالات الانسانية. ولكل من الفريقين حجج وبينات يؤيدون بها مدعاهم »

« قال الفريق الأول: لو لم تكن التقادير هي الحاكمة في أنصبة البشر، اللاعبة بحظوظهم، الفاعلة في تغيير أحوالهم وأخلاقهم، لبلغ كل امرئ ما يتمنى على قدر همته وسعيه، وكم من ساع وراء أمر يرومه والتقادير تعانده فلا يبلغ متمناه »

فهذا كلام لو قورن بأسلوب الكتابة في هذه الأيام لما تخلف عنه في كثير ولا قليل، بل ربما فاق أسلوب الكثير من مشهوري الكتاب بصحة اللغة وحسن السبك ومتانة التركيب.

وهذه الظاهرة من خير الشواهد على نبوغ الأستاذ، لأن النابغة يتخطى حدود زمانه ويدرك ما لا يدركه معاصروه إلا بعد أمد طويل.

هذه كلمتي في أسلوب أستاذنا قسطاكي بك الحصي في الكتابة النثرية، وأنا أعلم ما فيها من عجز وقصور عن إدراك شأوه وبلوغ مداه، وإيفاء البحث حقه من الدرس والتمحيص، ولكن أنى لمثلي أن يسابق في هذه الحلبة ويجري في هذا المضمار وقد اجتمع فيه عيون الأدب ومصطفى رجاله لتكريم إمام من أئمة البيان. غير أن لي من حسن نيتي شفيعاً لقصوري، فليتفضل الأستاذ بقبول هذه الكلمات مني هدية مقرونة بالاعجاب بأدبه والدعاء له بطول البقاء

معهد التناسليات
معهد التناسليات تأسيس الدكتور ماجنوس لهيرشفلد فرع القاهرة بعمارة روفيه رقم ٤٦ شارع المبتديان تليفون ٥٢٥٠١ يعالج جميع اضطرابات والأمراض والشذوذ التناسلية والعقم عند الرجال والنساء وتجديد الشباب والشيخوخة المبكرة. ويعالج بصفة خاصة: زيادة الباسة طبقاً لأحدث الطرق العلمية والعيادة من ١٠-١ ومن ٤-٦. ملاحظة: يمكن إعطاء نصائح بالمراسلة للمقيمين بعيداً عن القاهرة بعد أيداع مبلغ ٥ قروش على مجموعة الأسئلة الخصوصية على ١٤١ سؤالاً التي يمكن الحصول عليها نظير ٥ قروش